عزيز علي المصري

«أبو الثوار»

- رأس أول جيش عربي وتولى وزارة دفاع الشريف حسين.
- خدم الجيش العثماني ولم يخن القضية العربية.
- حارب الاستعمار في ليبيا.. وحقن الدماء اليمنية.
- عرض الإنجليز عليه عرش اليمن فقال: اليمن لأهله وليس لكم.
- استشاره الضباط الأحرار واعتبروه المثل الأعلى.

من الأبطال رجال أثبتوا شجاعة فى زمن الحرب، ومنهم مَن أثبت شهامته ونخوته عند حاجة الناس إليه، ومنهم من اكتفى بالتمسك بأخلاقه فى زمن الشدّة، ومنهم مَن جمع تلك الصفات معًا.

من هؤلاء أبو الثائرين «عزيز على المصرى» الذى ترك بصماته الواضحة على صفحات الجهاد من أجل العروبة والإسلام، حيث شارك بحماسة فى تحرير بقاع غالية من الوطن العربى، ونذر كل ساعة من أيامه من أجل مكافحة الدخلاء المستعمرين.

كان عزيز المصرى إنسانًا فريدا من نوعه، حياته سلسلة من التضحيات والبطولات والمغامرات التى جعلت من اسمه أسطورة تجاوزت مصر والعالم العربى والإسلامى إلى بقاع أخرى من الدنيا.

تعرض الفريق عزيز المصرى لمخاطر وأهوال فى سبيل عقيدته ومبادئه، وصدرت أحكام بإعدامه، ولكنها لم تستطع أن تهز شعرة فى رأسه، وبقى صامداً لا يلين، يجاهد من أجل مثله العليا، وفى سبيل أحلام بذل الكثير من أجل تحقيقها.

كان عزيز المصرى نموذجًا من الأبطال نادر الوجود، عاش بأخلاق وسلوكيات الفرسان فى تعامله مع كل من عاشرهم من الأهل والأصدقاء ورفاق السلاح، وكان إنسانًا شريفًا فى خصوماته وصداقاته، مسلمًا قولاً وعملاً، يكره الخيانة، ويتمسك بالخط المستقيم فى حياته العامة والخاصة مهما يكن صعبًا.

كان عزيز المصرى شاهداً حيًا على عدة عصور، وصانعًا لعديد من الثورات أو مشاركًا فيها، شارك عن كثب فى صنع جزء كبير من تاريخ الشرق الأوسط كله

خلال مرحلة التحولات الكبيرة التى حفلت بها المنطقة منذ بدايات القرن العشرين.

كان عزيز المصرى رفيقًا لمصطفى كمال أتاتورك، وقاتل مع الجيش التركى فى الجبل الأسود والبوسنة والهرسك وقاتل الإيطاليين فى ليبيا، وفى أول وزارة للشريف حسين الذى بُويع ملكا على العرب فى أكتوبر ١٩١٦ عُيّن رئيسًا لأركان أول جيش عربى فى الحجاز ثم وزيراً للدفاع.

وهو الأب الروحى للضباط الأحرار، عاش بداية الحركة والتمهيد للثورة، وعاصر الأيام الحاسمة قبل قيامها، وبعد أن وضعت أقدامها فى الحكم، وكان عبد الناصر والسادات والضباط الأحرار يستشيرونه فى أمور الثورة، وكان من المفروض أن يكون هو رئيسًا للثورة المصرية إلاّ أنه رفض ليحل محله اللواء محمد نجيب، وقد رسم للثوار خطوط الحاضر والمستقبل.

طفولة بطل

وُلِدَ «عزيز المصرى» فى عام ١٨٨٠م، واسمه الحقيقى «عبد العزيز زكريا على» جاء إلى الحياة ومصر تشهد حالة من الغليان دفعت الضباط المصريين ومنهم أحمد عُرابى للمطالبة بفتح باب الترقى أمامهم إلى المناصب العليا، وعدم قصرها على الضبّاط الشراكسة، وطالبوا أيضا بتحسين أحوال الجنود المصريين وصرف رواتبهم وإلغاء قانون السُّخرة، وكان يؤيد هذه المطالب ويدعو إلى الثورة على الاستعمار والخديوى توفيق قادة الفكر من أمثال جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وعبد الله النديم.

كانت مربيته «مبروكة» لا تفارقه، وكان فى العاشرة من عمره، عندما توفى والده، وكانت والدته تحنو عليه بشدة، لكنها فارقت الحياة بعد أبيه بخمس سنوات، فكفلته أخته من أمه، حرم «على باشا ذو الفقار» مُحافظ القاهرة.

درس المرحلة الابتدائية فى المدرسة التوفيقية، وكان اسمه فيها «عبد العزيز زكريا»، وقد أتم الدراسة الابتدائية عام ١٨٩٨م. وبعد عدة سنوات حصل على

البكالوريا، وكانت رغبته أن يلتحق بالكلية الحربية فى فرنسا، ولكنه كره هذه البلد الذى كان يحتل الجزائر، ورضوخا لرغبة شقيقته وزوجها التحق بمدرسة الحقوق، على غير رغبته ونزعته العسكرية.

وهناك التقى أمير الشعراء أحمد شوقى، الذى كان أحد أساتذته فى تعليم اللغة الفرنسية، وشكا له «عزيز» عدم رغبته فى استكمال الدراسات القانونية، فوعده أن يكون سفيره لدى شقيقته الكبرى زوجة على باشا ذو الفقار.

ونجح «شوقى» فى مسعاه والتحق «عزيز» بالمهندسخانة المصرية لدراسة الرياضيات وعلم المثلثات والعلوم الحديثة، استعداداً للالتحاق بالكلية الحربية فى اسطنبول.

فى سبيل المثل والمبادئ

وهناك أطلقوا عليه «قاهرة لى عزيز على» أى «عزيز على المصرى»، وهكذا أصبح اسمه فى التاريخ «عزيز المصرى»، وفى الكلية الحربية التركية كان دائما من الأوائل، وكان ترتيبه الحادى عشر فى مجموع سنوات الدراسة، مما ساعده على الالتحاق بكلية أركان حرب، التى تخرج فيها عام ١٩٠٥.

وأثناء سنوات الدراسة أُعجب بالضباط الألمان الذين كانوا يقومون بالتدريس، واحترم فيهم العقلية الجادة والتفكير السليم، واحترام الإنسان، وتقديس العمل، والتضحية بكل شىء فى سبيل المُثل والمبادئ.

وكان قد التقى أثناء وجوده بالكلية الحربية بعدد من الشباب العرب والأتراك الساخطين على الحكم العثمانى، من بينهم نورى السعيد، وجعفر العسكرى ومصطفى كمال أتاتورك، وكان أتاتورك قد كوّن مع مجموعة من الساخطين على السلطان العثمانى عبد الحميد «جمعية الوطن» عام ١٩٠٦م، ثم انضمت هذه الجمعية إلى جمعية «الاتحاد والترقى»، التى كانت تهدف إلى خلع السلطان عبد الحميد، وإقامة دولة تركية ديمقراطية.

وهى الجمعية التى كان «المصرى» عضوا فيها، وانتهت جهود الجمعية بثورة شاملة عام ١٩٠٩م أسفرت عن عزل السلطان عبد الحميد، ونفيه وتعيين السلطان محمد الخامس بدلاً منه.

حامل لواء العروبة

بعد استيلاء الاتحاديين على أمور البلاد دبّ الخلاف بينهم وبين الضباط العرب، الذين كانوا يأملون فى الحصول على نوع من الحكم الذاتى لبلادهم، فلمّا لم يتحقق ذلك بدأت الدعوة إلى العروبة يشتد عُودها وكان لعزيز المصرى دور كبير فى هذه الدعوة، وقد عُرف أنه حامل لواء الوحدة العربية، وأول الداعين إلى إنشاء قومية عربية، والاستقلال عن الدولة العثمانية ولهذا اختاره الضباط العرب لقيادتهم لما لمسوا فيه من وطنية صادقة وشجاعة هائلة وقيادة حكيمة.

انفصلت العناصر العربية عن جمعية «الاتحاد والترقى» وكوّن المصرى جمعية «القحطانية»، إلاّ أن ثورة اليمن ضد الحكم العثمانى قامت عام ١٩١١م، وذهب «عزيز المصرى» على رأس الجيش التركى لقمع الثورة، وتمكّن من حقن دماء الطرفين، بعقد صلح مع يحيى حميد الدين إمام اليمن. ثم سافر «عزيز» بعد ذلك إلى ليبيا لمحاربة الإيطاليين.

جمعية العهد

عاد «المصرى» إلى «الأستانة» سنة ١٩١٣م، فى وقت بلغ العداء والاضطهاد التركيان للعرب ذروتيهما، فاستقال من الجيش، وتفرّغ للعمل ضمن صفوف الحركة العربية، وأسس فى العام ذاته بالتعاون مع مجموعة من الضباط العرب «جمعية العهد» التى ضمت فى عضويتها ٣١٥ ضابطا من جملة ٤٩٠ ضابطا عربيًا كانوا يخدمون فى الأستانة، وكان برنامج «العهد» يقوم على إنشاء اتحاد فيدرالى يضم كل الشعوب الخاضعة للدولة العثمانية من الأتراك والألبان والبلغار والعرب، بما فى ذلك مصر والسودان وطرابلس والمغرب وتونس، على أن تنشىء

كل قومية فيها كيانًا إداريًا مستقلاً، ويكون السلطان العثمانى، أو من يُنتخب بدلاً منه رئيسًا رمزيًا لا فعليًا للاتحاد.

أما بشأن الدين، فقد دعا «عزيز المصرى» من خلال دستور الجمعية إلى وجوب التسامح الدينى إلى أبعد حد فى النظام الجديد. وأن معرفة الله من قبل جميع الطوائف يمكن أن يكون القاسم المشترك بينها ليستغنى عن بقية التفاصيل مع الزمن والرقى. وكان للجمعية فروع فى العديد من الدول العربية.

محاكمة واتهامات باطلة

تزايد النشاط القومى لعزيز المصرى دفع السلطات التركية لاعتقاله فى فبراير عام ١٩١٤، وقدمته إلى المحاكمة، ناسبة إليه عددًا من الاتهامات الباطلة، وحكمت عليه المحكمة العسكرية التركية بالإعدام وهو ما استثار حركة معارضة قومية فى كافة الأقاليم العربية، ووصلت البرقيات والخطابات من أنحاء العالم العربى، تطلب من السلطان محمد رشاد محاكمة أنور باشا الذى كان وراء المحاكمة وأن يطلق سراح البطل عزيز المصرى، وكتب أمير الشعراء أحمد شوقى قصيدة إلى السلطان يشيد بالمصرى بطل اليمن وليبيا ومنها قوله:

قل للإمام محمد ولآله ... صبر العظام على العظيم جميل
أن تفقدوا الآساد أو أشبالها ... فالغاب من أمثالها مأهول
صبرا فأجر المسلمين وأجركم ... عند الإله وأنه لجزيل
يامن خلافته الرضية عصمة ... للحق أنت بأن يحق كفيل
والله يعلم أن فى خلفائه ... عدلاً يقيم الملك حين يميل
والعدل يرفع للمالك حائطًا ... لا الجيش يرفعه ولا الأسطول
هذا مقام أنت فيه محمد ... والرفق عند محمد مأمول
بالله، بالإسلام بالجرح الذى ... ما أنفك فى جنب الهلال يسيل

ألا حللــت عـــن السجين وثاقه   إن الوثاق علــى الأسود ثقيل
أيقول واش أو يـــردد شامــت   صنديـد بـرقـة موثــوق مكــبول
هو من سيوفك أغمدوه لريبة   مـــا كـــان يغمد سيفك المسلول
فـــاذكـــر أميــر المؤمـنين بـلاءه   واستبـقـه أن الـسيوف قـليـــل

واضطر السلطان إلى الإفراج عن «عزيز المصرى» الذى عاد إلى مصر، حيث وصل إلى الإسكندرية، ثم ركب القطار إلى القاهرة، وهناك كانت مظاهرة ضخمة من الرجال من جميع الأعمار، يتقدمهم رجال الدين والأعيان، فى استقباله وهم يهتفون:

«عاش عزيز المصرى، عاش بطل اليمن وبرقة وبنغازى وطبرق».

وحدة العرب

إلا أن الثائر لا يهدأ، فالمصرى لا همّ ولا تفكير له إلاّ وحدة العرب واستقلالهم، وما أن أعلن الأميران على وفيصل نجلا الشريف حسين فى الخامس من يونيو عام ١٩١٦م استقلال العرب عن الحكم التركى، واشتعلت شرارة الثورة العربية فى الحجاز، سافر «عزيز» إلى هناك للإسهام فى تنظيم الجيش العربى، وعينه الشريف حسين وكيلاً لوزارة الحربية، وقائدًا لجيش العرب، فحقق إنجازات كبيرة فى بناء الجيش وقيادته نحو النصر، وعندما ثبتت الثورة أقدامها، أعلن الشريف حسين نفسه ملكا على البلاد العربية فى ٢٩ نوفمبر ١٩١٦، وشكل حكومته التى تولى فيها «عزيز المصرى» وزارة الحربية ورئاسة الأركان.

وفى الوقت الذى كان فيه «عزيز المصرى» حريصًا على تأمين الدعم البريطانى للثورة كشرط ضرورى لانتصارها، فإنه كان حذرًا تجاه الأطماع البريطانية فى الوطن العربى، لذلك نجده يسارع بتحذير الشريف حسين فى مارس ١٩١٧م، من إتفاق الإنجليز والفرنسيين على تقسيم العالم العربى بينهما فيما عُرف بإتفاق «سايكس ـ بيكو»، وهو الاتفاق الذى كانت أخباره قد وصلت إلى «عزيز

المصرى» قبل إعلانه بوقت طويل، ولكن بسبب الثقة المفرطة التى أولاها الشريف حسين للإنجليز، فإنه لم يصدق عزيزا، فآثر الإنسحاب، وعاد إلى مصر فى نفس الشهر، ليبرهن سير الأحداث بعد ذلك صحة موقفه وعمق بصيرته.

من إسبانيا إلى ألمانيا

كانت دسائس الإنجليز سببًا فى حدوث الخلاف بين «عزيز المصرى» والشريف حسين، لأن المصرى رفض مرارًا عرضًا من الإنجليز بالتعاون معهم، وكان يعرف حقيقة أطماعهم فى البلاد العربية، ولذلك ما إن وصل إلى القاهرة، حتى بدأت مضايقاتهم له خاصة بعد أن رفض التعاون معهم فى العراق واليمن التى عرضوا عليه أن يكون ملكًا عليها، فرد عليهم بقوله: «كيف أجلس على عرش اليمن وهو ملك لأهله وليس ملكا لكم.. إننى أرفض جميع هذه العروض».

فما كان منهم إلا أن خيروه بين السفر إلى سويسرا أو أسبانيا فسافر إلى أسبانيا منفيًا، وكان هذا هو الإجراء المتوقع بعد أن فشلت محاولاتهم لإقناعه بالانضمام إليهم، وخوفًا من أن يثير القلاقل داخل مصر.

ومن إسبانيا سافر «عزيز» إلى ألمانيا بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى استجابة لرغبة أصدقائه الألمان، خاصة «المارشال لوندروف» وبتوصية من «كمال أتاتورك» الذى أشاد بعبقرية «المصرى» وطالب بتذليل أية عقبة أمامه فى الحياة داخل ألمانيا.

وفى ألمانيا عمل «عزيز المصرى» مُدرسًا فى كلية أركان الحرب، حيث كان يُدرِّس تجربته فى حربه ضد البلغار، وأسلوب حرب العصابات الذى ابتدعه وسط المناطق الجبلية ووسط الصحراء والغابات فى ليبيا ضد الإيطاليين.

رشوة إنجليزية

ظل البطل «المصرى» منفيًا عن بلاده حتى عاد إلى مصر سنة ١٩٢٤. بعد أن وصل حزب الوفد إلى الحكم. وبعد شهور قليلة من عودته تلقى رسالة من

صديقه وزميله فى الجيش العثمانى الضابط «ياسين الهاشمى» الذى أصبح رئيسًا لوزراء العراق، يطلب منه سرعة التوجه إليه، فلبّى الدعوة، حيث التقى العديد من رجال «جمعية العهد» الذين كانوا ضباطا عراقيين فى الجيش العثمانى، ثم جاءوا للعمل فى الجيش العراقى.

أخبره «ياسين الهاشمى» أنه يفكر فى عمل إنقلاب عسكرى فى العراق، وتحقيق حلمهم القديم بجعل بغداد نقطة الإنطلاق كبلد عربى مستقلّ تكون البداية لتحرير البلاد الأخرى. وطلب منه مساعدته على وضع الخطة المناسبة. ولم يسترح الإنجليز لوجود «المصرى» فى العراق، فاستدعاه المندوب السامى البريطانى، وسأله عن سر وجوده، فردّ عليه «عزيز» بتساؤل آخر عن الذى يفعله هو ـ أى المندوب السامى ـ فى العراق، وهو الإنجليزى الأجنبى، بينما «عزيز» يعتبر وجوده فى العراق وطنه العربى أمرًا طبيعيًا لا يُسأل عنه! وعرضوا عليه تعيينه رئيسًا لشركة نفط العراق براتب قدره خمسة آلاف جنيه وبيت عريق وأنيق فى لندن، ولكنه رفض، فكان من الطبيعى أن تصدر الأوامر بإبعاده عن العراق.

وكان خلال إقامته هناك قد تزوج من الأمريكية «فرنسيس» ابنة أحد أثرياء النفط الأمريكيين والتى كان قد تعرف عليها فى القاهرة قبل سفره.

العودة إلى القاهرة

وعاد «عزيز المصرى» إلى القاهرة عام ١٩٢٦م. وأقام هو وزوجته «فرنسيس دريك» فى شقة بالدور الأخير بإحدى العمارات المقابلة لدار المندوب السامى البريطانى، وكانت المشكلة التى تواجهه هى تدبير النقود التى يمكن أن تكفيه هو وزوجته وطفله القادم، خاصة وأنه لم يكن له عمل أو دخل ينفق منه، فاضطر إلى الإستدانة، إلى أن عُينت زوجته مُدرّسة للغة الإنجليزية فى كلية البنات.

وبدأ يكتب مقالات أدبية وسياسية فى مجلة السياسة الأسبوعية التى كان يصدرها حزب الأحرار الدستوريين، تناول فى بعضها تاريخ الإسلام والمسلمين، وفترات الصحوة والفتوحات فى عهد الدولة الأموية فى الشرق والغرب، كما

كتب عن الحال التى وصلت إليه الدولة العثمانية، وكيف فتح هذا الضعف الباب أمام الاستعمار لإنجليزى والفرنسى ليملأ فراغ الضعف العثمانى، كما نادى فى مقالاته بتجمع واتحاد الأفكار والمبادئ والمصالح بين المسلمين عامة والعرب خاصة.

مدير كلية الشرطة

وتقديراً لدوره الوطنى والقومى، واعترافًا بعبقريته العسكرية اختاره محمد محمود باشا رئيس الوزراء المصرى عام ١٩٢٨ مديراً لكلية الشرطة «البوليس»، فاستحدث فيها أساليب جديدة فى التعليم والتدريب والتربية لم يجر العرف على العمل بها، فوضع قوانين جديدة واختار أعضاء هيئة التدريس من بين الضباط الأكفاء فى مصر، وأدخل الدراسات القانونية والإدارية وعلوم الشرطة، واهتم باللياقة البدنية. وأدخل لأول مرة سلاح الكلاب البوليسية.

وكان يجلس مع الطلبة يحدثهم عن الإسلام والمسلمين، وضرورة التحلى بالأخلاق الكريمة، وأن يرعى القوى الضعيف ويساعده، وأن يحترم الصغير الكبير.

وقام باستضافة رجال الفكر والأدب وكبار الشخصيات للتحدث إلى طلبة الكلية فى مناقشات عامة، وكان من ضيوفه الذين شرفت بهم مدرسة البوليس: طه حسين، منصور فهمى، عبد الرحمن عزام، صالح حرب، ومحجوب ثابت وغيرهم.

وألغى عزيز المصرى من الكلية نظام المراقبة أثناء الامتحانات، وكان من رأيه أن الضابط الذى سيتولى مهمة حراسة الشعب والمحافظة على أمنه، هذا الضابط يجب عند دراسته فى المدرسة أن يتعلم ويتعود أن يثق فى نفسه حتى يثق فيه الناس، ويجب أن يتعلم الأمانة ليكون أمينًا مع نفسه ومع جميع المواطنين.

ومن العلوم الأخرى التى أدخلها «عزيز المصرى» إلى كلية البوليس؛ التصوير والرسم ومبادئ الطب الشرعى.

وأصبح لهذه الكلية صيت واسع نظرًا لما بذله عزيز المصرى من جهد واضح، وما عُرف عنه من الحزم والجدية، وعبقرية التنظيم والإدارة والمعرفة الموسوعية. مما أثار انتباه وإعجاب الملك فؤاد، ملك مصر، فزار الكلية وأثنى على كل شىء شاهده، ولم يصدق أن هذه الكلية فى مصر.

مُعلم الملك

ولشدة إعجاب الملك فؤاد بعزيز المصرى وما أحدثه فى كلية البوليس من تطوير اختاره ليكون الرائد الأول للأمير «فاروق» ولى العهد عندما أرسله إلى إنجلترا سنة ١٩٣٥ ليستكمل دراسته بها.

ويومها قال الملك فؤاد لعزيز المصرى: «يا عزيز لقد اخترتك لأننى أعجبت بطريقتك وأسلوبك وعسكريتك فى قيادة مدرسة البوليس، وأنا أريد لولى العهد رجلاً على مثل شاكلتك، وإننى أعطيك كافة الصلاحيات لمباشرة هذه المهمة، كما أعطيك حق مراسلتى بشكل دائم لأقف على حياته وسلوكياته وانتظامه فى الدراسة، وأنا لا أطلب الحجر على حريته، ولكننى لا أريد لشبابه أن يصب فى قنوات تسىء إليه، وإلى بلده، لأنه يومًا ما سوف يجلس على عرش مصر، وبقدر العطاء الذى يحصل عليه منك، بقدر ما سوف يقربك إليه ويثق فيك وهذا ما أريده».

واعتقد «المصرى» أنه يمكن أن يجعل من الملك القادم حاكما يحب ويحترم شعبه، ويحبه الشعب، ولكن أحمد حسنين الذى كان يرافق فاروق حال دون تحقيق ذلك، وأفسد ولى العهد، مما جعل عزيز المصرى يكتب إلى الملك فؤاد ليعفيه من هذه المهمة.

أكثر من خصم

فى وزارة «محمد محمود باشا» التى شكلها عام ١٩٣٨، خاض رئيس الوزراء الذى كان يؤمن بوطنية «عزيز المصرى» وعبقريته العسكرية معركة ضد القصر والإنجليز لتعيين المصرى رئيسًا لأركان حرب الجيش المصرى، وهدد بالاستقالة إن لم يحدث ذلك.

وكسب محمد محمود المعركة وتم تعيين «عزيز المصرى» بعد أن رُقى إلى رتبة الفريق مفتشًا عامًا للجيش المصرى، ليكون بذلك أول مصرى يشغل هذا المنصب، بعد أن كان يشغله دائمًا انجليزى.

كانت مهمة «المصرى» تطوير وتحديث الجيش المصرى، وحاول أن يقوم بها خير قيام وهو القادر على ذلك، ولكنه وجد معارضة شديدة من الملك فاروق ومعه أحمد حسنين الذى أصبح رئيسًا للديوان الملكى من جهة والإنجليز من جهة ثانية، وهم لا ينسون له رفضه التعاون معهم عبر تاريخه الطويل. وأيضا الأحزاب التى كان يرى أنها فشلت فى تحقيق أى مطلب وطنى أو تحقيق طلبات طبقات الشعب المطحونة ورفع المعاناة عن الفلاحين. مما أدى إلى تجميد مهمته وسحب جميع اختصاصاته، مما دفعه إلى الجلوس فى بيته وخلع رداء العسكرية، الذى تحول إلى مجرد ذكريات كلها ندم وحسرة على الدولة الضعيفة، التى توضع سياستها فى إنجلترا، لضعف عام فى رجالها وأحزابها وجيوشها وحاكمها الذى نسى نفسه أمام شهوة الحكم، وبالتالى نسى شعبه.

الثائر دوما

ولكن قدر «عزيز المصرى» كان أن يكون ثائرًا باستمرار، بعد عزله من منصبه الذى لم يقض فيه أكثر من سنة. كان يكره الإنجليز ويرى فى التعاون مع الألمان ضرورة للانتقام من الإنجليز، خاصة بعد إعلان الحرب، وبعد أن علم أن الإنجليز فى حربهم ضد الألمان كانوا يخططون لإغراق الدلتا بالمياه ونسف جميع الكبارى والقناطر، ومعنى ذلك إغراق شعب مصر بالمياه، وتعريضه للموت غرقًا ونقص الغذاء وتفشى جميع الأوبئة، وكل ذلك من أجل صالح وعيون الإنجليز وبحجة منع تقدم القوات الألمانية داخل الأراضى المصرية وقد وضع هذه الخطة ونستون تشرشل.

صديق هتلر

من أجل ذلك أراد «المصرى» أن يلتقى بروميل وهتلر ومحاولة إقناعهما بأهمية العون المصرى ضد الإنجليز، وأن يقابل هذه المعونة شرط

استقلال مصر. ومن هنا كان من الضرورى أن يغادر مصر من أجل اللقاء مع الألمان.

وكانت المحاولة الأولى للقاء الألمان كما خططوا لها أن تهبط طائرة ألمانية فى «الخطاطبة»، ثم تغيرت الخطة لتهبط الطائرة جنوب غرب أهرامات الجيزة، وركب «عزيز» سيارة إلى المكان المحدد، واقتربت العربة وسط الظلام الحالك، وفجأة على غير انتظار تعطلت العربة، وفشلت محاولات إصلاحها، لتفشل معها محاولة اللقاء الأولى.

محاكمة عسكرية

أما المحاولة الثانية فكانت سنة ١٩٤١ بالاتفاق مع ضابطين من سلاح الطيران، هما حسين ذو الفقار صبرى وعبد المنعم عبد الرءوف، واستقلوا الطائرة بالفعل. ولكنها سقطت لخلل فنى بها، وتم القبض عليهم بواسطة البوليس السياسى، ويحال الفريق «عزيز المصرى» إلى محاكمة عسكرية، ورغم الرقابة الصارمة على أنباء المحاكمة، لقيت تعاطفا كبيرًا من الشعب الذى التف حوله، وتشكلت هيئة للدفاع عنه، كان من بينهم فتحى رضوان، أثارت الهيئة مسألة عدم دستورية قانون الأحكام العسكرية الذى يحاكم «عزيز» بموجبه، لكونه عند صدوره عام ١٨٨٤م لم يُعرض على البرلمان ليأخذ الصفة القانونية الرسمية، مما أدى إلى إيقاف المحاكمة، مع بقاء اعتقال «عزيز المصرى» ولم يُفرج عنه إلا بعد تشكيل حكومة مصطفى النحاس فى ٤ فبراير ١٩٤٢م.

وكأنما الاعتقالات بعد ذلك كانت جزءًا من شريط حياة «عزيز المصرى» فقد تم القبض عليه بعد اغتيال أمين عثمان فى يناير ١٩٤٦، ومن قبلها فى فبراير ١٩٤٥ بعد اغتيال أحمد ماهر رئيس وزراء مصر، ومن بعد اغتيال النقراشى فى ديسمبر ١٩٤٨، كما كان هناك تفكير جدى فى القبض عليه بعد حريق القاهرة فى يناير ١٩٥١.

كتائب التحرير

الوطنية والدفاع عن البلاد والعمل الجاد ضد المستعمر دفع «عزيز المصرى» رغم تقدم عمره أن يقدم مذكرة إلى الحكومة الوفدية يعرض فيها خدماته العسكرية مع كتائب التحرير، التى تشكلت بمباركة الحكومة لمقاومة قوات الاحتلال على امتداد خط ومدن قناة السويس، بعد أن ألغى مصطفى النحاس فى ٨ أكتوبر ١٩٥١ معاهدة ١٩٣٦، واتفاقيتى مصر والسودان بين مصر وبريطانيا عام ١٨٩٩م. وتم إسناد المهمة إليه.

واستطاع بخبرته العسكرية الطويلة تقديم المئات من المتطوعين الذين يصلحون للقتال ضد الإنجليز، وقامت الكتائب بأعمال باهرة زلزلت الوجود الإنجليزى، ونسفت العديد من المعسكرات وقطعت إمدادات المياه، ودمرت عشرات العربات، وباتت هذه الكتائب شوكة فى ظهر القوات الإنجليزية إلى أن أصدر فؤاد سراج الدين قراراً بضم الكتائب إلى الحكومة، فشعر «المصرى» أن ذلك يهدف إلى الإقلال من فاعليتها، فأصدر بيانا أدان فيه هذا القرار وهاجم القصر والإنجليز.

ثورة ٢٣ يوليو

كانت المحطة الأخيرة من حياة «عزيز المصرى» العسكرية والسياسية هى ارتباطه بالضباط الأحرار فى الجيش المصرى، وكان أنور السادات أول من التقى به من الضباط الأحرار، حيث كان يزوره فى بيته ضمن غيره من شباب مصر، الذين كانوا يناقشونه فى أمور البلاد السياسية وكان يهمهم أمل ومستقبل مصر. وكان قد تنامى إلى علمه وجود تنظيم شبابى بالجيش يعمل لتخليص البلاد من الملك والإنجليز متأثراً بأفكاره، وإن السادات ضمن هذا التنظيم، ويومها قال له: «لن أسألك من معك؟. ولن أقول لك ماذا تفعلون؟ ولكن على بركة الله ما تعملون وما تخططون وما تدبرون من أجل خلاص مصر من أبطال اللعبة السياسية القذرة، لقد حقق نابليون بونابرت ما حققه وهو فى السابعة والعشرين، لقد

اعتمد على نفسه، ومن هنا يجب أن تعتمدوا على أنفسكم، وتأكدوا أن الله معكم مادمتم قد اتجهتم إليه، بنية خالصة، ومن خلال عمل مخلص أساسه الإيمان العميق بالتغيير، فلن يتخلى الله سبحانه وتعالى عنكم، لأن يد الله مع الجماعة».

وأصبح أنور السادات هو ضابط الاتصال بين «عزيز المصرى» والضباط الأحرار الذين كانوا يذهبون إليه بمقر إقامته بعين شمس، وقد طلب منه جمال عبد الناصر أن يكون قائدًا للثورة، ولكنه رفض رغم سعادته بهذا الطلب لأنه يحب أن تكون القيادة من بينهم، وألا يسلبهم هذا الشرف لأنه يرى فيهم شبابه، ونصحهم بأن يكون صاحب رأى ومشورة ومساعد فى اتخاذ أى قرار وأن يقوم بمهمة الأب الروحى لهم.

وبعد نجاح الثورة نصح «عزيز» جمال عبد الناصر بعدم محاكمة الملك فاروق، والاكتفاء بتنازله عن العرش.

وعرفانًا بالجميل وبأبوته الروحية لهم، اختارت الثورة الفريق «عزيز المصرى» ليكون أول سفير لهم فى الاتحاد السوفيتى، ليعمل على إعادة تسليح الجيش المصرى وأن يكون السلاح الروسى بدلاً للسلاح الغربى، وخلقت جسرًا من التفاهم بين المسئولين هناك وبين قادة الثورة المصرية، أثمرت بعد ذلك عن اتفاقية لتزويد مصر بالأسلحة المتطورة، وكانت بداية علاقات متميزة بين الجانبين.

جهاد مستمر

وأثناء العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ على مصر أسهم فى وضع خطة انسحاب الجيش المصرى من سيناء، وحققت الخطة أهدافها، وتم إنقاذ جزء كبير من الجيش والمعدات. وقد اعترض على دخول الجيش المصرى لحرب اليمن. وظل رغم تقدم العمر به متابعًا لأحوال الوطن حتى وافاه الأجل فى ١٥ يونيو ١٩٦٥. فذهبت روحه إلى الله راضية مرضية، بعد أن قدم لمصر والأمة العربية

والإسلامية أجل الخدمات، وفرض نفسه على التاريخ، وإن كان كتاب التاريخ المتحيزين لم يفوه حقه، ولم يفه أبناء بلده ما يستحق من التكريم والاحتفال، وكأنما كان قدره أن يواجه العقوق حيًا وميتًا، وهو البطل الذى حمل رأسه على كفه دفاعًا عن حرية العرب واستقلالهم.

تحية إلى روح هذا البطل الذى يجب أن يستمد منه شبابنا القدوة فى جهاده وتضحياته فى سبيل حب مصر والعروبة.

أقول الحق حتى لو فقدت حياتى

يقول عزيز المصرى:

«علمتنى الأيام أن أقول الحق حتى لو فقدت حياتى، إن من يقول الحق يعلم خصمه أن يرد عليه بالحق، إن من يقول الحق ينام مستريح البال ويغمض عينيه وهو مستريح الضمير، لقد قلت دائما الحق لأن الله سبحانه وتعالى يطالبنا بذلك، ولأنه يريح الأعصاب، ويخلق المجتمع الصادق».

وصيته إلى الشباب

يقول عزيز المصرى عن الشباب إنهم جيل المستقبل الذى يجب أن نقف وراءهم بكل الحب والحنان والصرامة إذا كان ذلك ضروريًا، ويجب أن نحيط هذه الصرامة بسياج الحكمة والصبر حتى لا يضيع الشباب، فالشباب الضائع نكسة لوطنه، وكم من شباب ضائع قاد وطنه وأهله إلى الضياع والانحلال.

وعلى الشباب أن يتعلم ويقرأ وأن يكون لديه أخلاق، إن أول كلمة وأول حوار، وأول الرسالة المحمدية كانت قول جبريل عليه السلام لسيدنا محمد ﷺ «إقرأ» القراءة هى البداية ويجب أن تكون النهاية».

نعيم الدنيا والآخرة

يقول عزيز المصرى:

«علمتنى الحياة أن أعرف الله سبحانه وتعالى. . أن الناس والبشر الذين ينسون الخالق يعيشون فى وهم كبير، وهذا الوهم يجرهم إلى مزالق كثيرة أبعد ما تكون عن الاستقرار النفسى والروحى. فمن يبتعد عن الله يعش طوال حياته فى صراع عقلى جبار، يحارب فيه أشباحًا مخيفة صنعها تفكيره المظلم، يجب أن نراعى الله فى القول والفعل فى السر والعلانية لنفوز بنعيم الدنيا والآخرة».